الفصل الأخير

الحداثة العباسية فى قرطبة

- ١ -

قرطبـــة

القرن الثالث الهجرى فى قرطبة ، هو الامتداد الحقيقى للقرن الثانى الهجرى فى بغداد (ومن قبلها دمشق) . فى هذا القرن كل شىء غامض فى قرطبة ومع ذلك ، فنحن نحس بـاستقلالهم من احدى العلامات الهـامة ، فهم يلبسون القلنسوة الرومية (١) . واذا لم يلبسوا القلنسوة فبدون غطاء للرأس ، وبملابس الحداثة : «كان يرى محمد بن بشير القاضى داخلا على بـاب المسجد الجامع يوم جمعة ، وعليه رداء معصفر ، وفى رجليه حذاء يصر ، وعليه جمة مفرقة ، ثم يقوم فيخطب ويقضى وهو فى هذا الزى ، واذا رام أحد من دينه شيئا ، وجده أبعد من الثريا . ومما يحكيه الناس ويدور على ألسنتهم من أخبار محمد بن بشير أنه أتاه رجل لا يعرفه ، فلمـا نظر الى زى الحداثة من الجمة المفرقـة والرداء المعصفر وظهور الكحل والسواك وأثر الحناء فى يديه لم يتوسم عليه القضاء ، فقـال لبعض من يجلس اليه : دلونى على القاضى ، فقيل له : ها هو ذا وأشير له الى القـاضى ، فقال لهم : انى رجل غريب وأراكم تستهزءون بى . انا أسالكم عن القاضى وأنتم تدلوننى على زامر ، فزجر من كل ناحية ، وقال له ابن بشير : تقدم فاذكر حاجتك، فلما أيقن الرجل أنه القـاضى تذمم واعتذر ، ثـم ذكر حاجته فوجد من العدل والانصاف فوق ظنه (٢) » . فنحن أمام ظواهر حداثة فى الثياب تستلفت النظر

---

(١) الخشنى ، قضاة قرطبة ، الدار المصرية للتاليف والنشر والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦ ص ٧ ، ١٨ .

(٢) نفسه ص ٣٢ ، ويصف لنا الضبى فى البغية عرسا : «فلعهدى بعرس فى بعض الشوارع بقرطبة والنكورى الزامر قاعد فى وسط الحفل ، وفى رأسه قلنسوة وشى وعليه ثوب خز عبيدى ، وفرسه بالحلبية المحلاة وغلامه يمسكه ، وكان فيما مضى يزمر لعبد الرحمن الناصر . وهو يزمر فى البوق» ، ويبدو - كعادة الفنانين اليوم - أنهم يبالغون فى الاناقة والبريق وهذا ما دعا الرجل الى قوله . الضبى ، بغية الملتمس ، دار الكـاتب العربى ، ١٩٦٧ ، ص ٢٠٣ . كذلك فى كتـاب (أخبار مجموعة فى فتح الاندلس وذكر أمرائها ، لمجهول ، دار أسامة ، دمشق (مصور عن طبعة مدريد ١٨٦٧) يصف القاضى : «كان يخرج الى المسجد ويجلس للحكم فى ازار مورد ولمة مفرقة» . وفيما يتعلق بملابس الاندلسيين من المفيـد مراجعة أزجال ابن قزمـان ، واشارة الدكتور عبد العـزيز الأهوانى اليها فى كتابه : الزجل فى الاندلس ص ٧٢ - ٧٦ .

حتى أن بعض الناس تشير الى القاضى فى سخرية باسم «عشر الدلال» ! ويحفظ ذلك القاضى ، ويندم الساخر لحلم القاضى رغم الحفيظة (١) . ولعل ابن بشير كان يبالغ فى التزام «المودة» ، ومع ذلك يستقر لباس القلنسوة ، أو التخلص نهائيا من لباس الرأس حتى أن بعضهم «سأل يحيى بن يحيى عن لباس العمائم ، فقال : هى لباس الناس فى المشرق ، وعليه كان أمرهم فى القديم . فقيل له لو لبستها لاتبعك الناس فى لباسها . فقال : قد لبس ابن بشير الخز ، فلم يتبعه الناس ، وكان ابن بشير أهلا أن يقتدى به ، فلعلى لو لبست العمامة لتركنى الناس ، ولم يتبعونى كما تركوا ابن بشير ، وكان يحيى بن يحيى كثيرا مـا يحكى عن محمد بن بشير عن مالك بن أنس (٢) » .

فهناك الاتجاه المحافظ البدوى يريد عمامة المشرق ، لكن تفتح فقهاء الاندلس يعرف أنه لا يمكن الوقوف أمام تيارات اجتماعية كبرى . فقد اختار الأندلسيون ثيابا وطنية اذا صح التعبير منذ البداية ، فها هو قـاض آخر يجلس فى المسجد يحكم بين الناس وعليه «شركاب (٣) » ، والأمثلة لا تحصى ، ولذلك فنحن نتحفظ مع ما يقوله ابن خلدون من أن لباس الاندلسيين فى العصر الغرناطى المتأخر ، كان محاكاة منهم «كمغلوبين للغـالب (٤) » . فمن المـؤكد من النصوص السابقـة الاستقلالية حتى أن كشف الرأس يكون تعزيرا وهوانا فى العراق وهو فى الاندلس أناقة (٥) وقد تعلو الرأس جمة مفروقة أو قلنسوة ، والاندلسيون اختاروا اللون الأبيض لمبانيهم حتى صارت قراهم كالحمائم كما نراها اليوم ، واللون الابيض فى الخريف والمـلون فى غيره من الفصول مـوافقين زرياب على اختيـاره (٦) ، والناس تدخل الحداد فى الأسود وهم يدخلون فى الأبيض كبياض لياليهم .

فى هذا القرن الثالث نسمع عن هذا النمط من الحياة ، وهو نمط أندلسى . ان اختفاء العمائم فى هذا الوقت المبكر يدل على احتضان الملابس المحلية من جانب العرب الفاتحين .

ثم الاشتراك المبكر فى الأعيـاد الدينية الاسلامية والمسيحية متضمنة اجازة

---

(١) نفسه .
(٢) نفسه ص ٣٦
(٣) نفسه ص ٧٠
(٤) المقدمة ص ١٤٧
(٥) ابن الأزرق ، بدائع السلك فى طبائع الملك ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ١٩٧٨ جـ ٢ ص ١٦٠
(٦) نفح الطيب جـ ٣ ص ١٢٨

الأحد بجانب الجمعة لهو أمر بالغ الأهمية على تحول الشعائر الدينية الى عادات «قومية» . فـانى لا أشك فى أن كثـيرا من أهل البـلاد الأصليين الذين دخلوا فى الاسلام هم وراء استمرار هذه الاحتفالات ، ولم يكن الأمر مجرد مشاركة اسلامية مسيحية فحسب ، ولكنها حياة فولكلورية غنية تمسك بها أهل البلاد الأصليون ، وأعجب بها وتبناها العرب بدليـل اخراج الأمير نفسه الهبـات والجوائز لغير المسيحيين فى هذه الأعياد ، أى أنهـا تجاوزت الوجود الفولكلورى الى الـوجود الرسمى (١) .

اننا لن نطارد الظواهر المحلية أكثر من ذلك ، لكنها كانت حداثة استجدت على سلوك عرب الاندلس – فيما يبدو – بحثا عن عنـاصر وحدة بجانب جاذبية الحياة الفولكلورية بهذه البلاد الى حد تبنيها فى وقت مبكر كما نرى . وهى أيضا عناصر استقلالية اكتسبوها من واقع شبه الجزيرة الملىء بالقوميات التى تسعى – وحتى اليوم – للاستقـلال والتميز . ان هذا الواقع سوف يخلق تنـاقضا مفزعا . ان السعى للاستقلال الاندلسى سوف يحفز الاندلسيين دائما للتفوق على مصدر حضارة العصر وهو المشرق ، وهذا السعى الشامل نكتشفه من مراجعة الرحالة الاندلسيين نحو المشرق للحج واستيراد كل جديد ، فهؤلاء ينتمون لكل أقـاليم الاندلس ولكل أجناسه بـل ان بعض المسيحيين يتوجهون نحـو المشرق للتبشير مثـل رايموندو لوليو بل ان سانتا تيريزا تحكى لنـا فى سيرتها الذاتية (بعد سقوط غرناطة بما يقرب من قرن) أنها فكرت فى عمل نفس الشىء . ان هذا السعى للمنافسة والتفوق والاستقلالية سيخلق عناصر وحدة ، لكنـه سيتعمق أيضا داخل كل العرقيات والأجناس والأديان فى شبه الجزيرة ، فيؤدى الى صراع دموى على الجانبين المسيحى والاسلامى ، ثم بينهما داخل كل جانب .

ولهذا فان حداثة بغداد ، التى قاد خطاها الاولى بشار ، وتابعه فى تطوير وتمرد – تجاوز حدود أبى الحداثة بشار – كل من أبى نواس وأبى العتاهية ومسلم ابن الوليد – سوف تثير انتباه الاندلسيين . انها طريق للتفوق على المشرق لو تابعوا السير فيها ، ولا سيما أن المشرق قـد أوقف تيـار هذه الحداثة ، وأسلم الشعر تدريجيا الى البداوة كما ظهرت فى شعر البحترى ثم المتنبى من بعده .

ويورد ابن سعيد فى المغرب خبرا عن عبد الرحمن الأوسط – بالنسبة للباحث له دلالته الرمزية الكبرى – فالأخبار مادة للتحليل الدقيق وليست بابا فحسب

---

(١) راجع فتح الطيب جـ ٢ ص ١٢٥ ، والجوائز التى حددهـا عبد الرحمن الأوسط لهـذه الأعياد . كذلك راجع المقتبس ص ١٣٨ ، وهامش ٢٩٨ ص ٥١٩ .

من أبواب الطرافة – فحواه أن عبد الرحمن هو «الذى أحدث بقرطبة دار السكة، وضرب الدراهم باسمه ، ولم يكن فيها ذلك مذ فتحها العرب . وفى أيـامه أدخل للأندلس نفيس الجهاز من ضروب الجلائب لكون ذلك نفق عليه وأحسن لجالبيه ووافق انتهاب الذخائر التى كانت فى قصور بغداد عند خلع الأمين فجلبت اليه ، وانتهت جبايته الى ألف ألف دينار فى السنة . وهو الذى اتخذ الوزراء فى قصره بيت الوزارة ... وكان مولعا بالنساء ولا يتخذ ثيبـا البتة . وكملت لذته بقدوم زرياب غلام اسحق الموصلى (١) يثير هذا النص الانتباه الى :

١ – ثراء الأندلس واستقلالها الاقتصادى فى عهد عبد الرحمن الاوسط (دار السكة – الجباية) . والاستقلال الاقتصادى أصل كل استقلال .

٢ – انتقـال أدوات الحداثة المـادية (ذخائر قصور بغداد عند خلع الأمين) والروحية (زرياب) . وخبر ابن خلدون عن قدوم زرياب مسبوق بما يعطينا فكرة عن ذخائر قصور بغـداد ، فهو يتحدث عن تقـدم الموسيقى والغنـاء ، ويقول «... وكان من ذلك فى دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث (المستجد بعده) به وبمجالسه لهذا العهد (عهد ابن خلدون) ، وأمعنوا فى اللهو واللعب ، واتخذت آلات الرقص فى الملبس والقضبان والأشعار التى يترنم بها عليه (الرقص) ، وجعل صنفا وحده، واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى الكرج ، وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبـية يلبسها النسوان ، ويحاكين بها امتطاء الخيـل ، فيكرون ويفرون ، ويثاقفون ، وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو ، وكـثر ذلك ببغداد ... وانتشر منها الى غيرها ، وكان للموصليين غلام اسمه زرياب ...(٢) » . فمـا انتقل من بغداد كان كـل هذا : «عناصر الحداثة» والحياة المرحة التى جعلتهم يصفون أيام عبد الرحمن الاوسط بالعروس (٣) . اننى أظن أن هذا الوصف كان فى اغنية اسمها «الموشح العروس السباعى القفل» الذى امتنع ابن سناء الملك عن التمثيل له فى دار الطراز ، وأن هذا الموشح كان هدية زرياب لعبد الرحمن ، بل هو – كقدوة – قد غنى هذا الموشح ، فردد الناس بعده تسمية أيام عبد الرحمن بالعروس .

تنتقل الى قرطبة أدوات الحداثة فى بغداد (المادية) والروحية فى شخص زرياب الراوى العظيم والموسيقار المبدع (فى الموسيقى) المخترع (لآلاتها) ، صاحب دار

---

(١) ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب (تحقيق : شوقى ضيف ، دار المعـارف ، القـاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ٤٦ .

(٢) المقدمة ص ٤٢٨

(٣) المغرب ص ٤٦

«المودة» فى نفس الوقت . ان قدوم زرياب لم يكن الا استردادا لحياة بغداد فى عصر الأمين ، والتى آن لها أن تسير فى طريق آخر يسيطر عليه الاتجاه المحافظ الذى قاده «اسحق الموصلى» كما أسلفنا ، بينما قرطبة يقود فيها «زرياب» اتجاه ابراهيم ابن المهدى ، وأتباعه من الشعراء المحدثين . ان قيادة الحياة الاجتماعية والثقافية بعلم فى الموسيقى انتقلت الى قرطبة ، لكن شتان بين علم بغداد (اسحق البدوى النزعة فى الشعر والشعراء) وبين زرياب صاحب الاختراعات وأساليب الابداع التى وجدت متنفسها فى قرطبة ، ولم تجده فى بغداد .

وان كان زرياب وحده كافيا لنشر الحداثة بمعونة ذخائر قصور بغداد ، فان الحركة لـم تتوقف لاستجلاب الجديد وتعلمه ولهذا «هاجر عباس بن ناصح لما سمع بنجوم أبى نواس ، وروى شعره» (١) ، وهناك من الشواهد ما يثبت أن الأندلسيين قد تمكنوا من صنعة أبى نواس حتى أمكنهم تزييفها (نحل شعر عليه) دون أن يكتشف التـزييف الخبـراء (٢) . وفى المـواقف الصعبـة يستشهدون بشعـره (٣) . والذى حفظ شعر أبى العتـاهية من الضيـاع هم الأندلسيون . وهزل المحدثين وتهاجيهم وسخريتهم وميلهم عن عمود الشعر هى أبرز صفات شعر مؤمن بن سعيد والغزال وعباس بن فرناس . ان حداثة بغداد قد استقرت فى قرطبة ، وبصفة خاصة تجريبيتها والرغبة فى السبق واللجوء الى لغة الشعب الحية وتفجير طاقتها الشعرية . ولسنا فى مجال للتمثيـل ، ولكن يتبين ذلك من يدرس أشعار القرن الثالث . فالحداثة فى الشعر والموسيقى قد اكتملت فى قرطبة . وأن لها أن تنطلق على نحو فريد من الابداع مما لم يتح لها فى بغداد . وكانت نتيجة لتبنى هذا التيار المحدث أن حل زرياب ومعه عباقرة الموسيقيين والشعراء مكانة فى نفوس الأندلسيين وحياتهم (٤) لا تقارن بالمصير الحزين لشعراء الحداثة فى بغـداد .

وكانت ذروة هذا الواقع الموشحات .

---

(١) تاريخ الادب الاندلسى ص ٣٤

(٢) الحميدى ، جذوة المقتبس ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، ١٩٦٦ . ص ٢٢٨ – ٢٢٩ ، كذلك ، انظر : أحمد هيكل ، الأدب الاندلسى ، دار المعارف ١٩٧٩ ؛ ص ١٥٩ .

(٣) أخبار مجموعة ، ص ١٣٩ ، وهنا شواهد لا تحصى عن احتفال الاندلسيين بأشعار أبى نـواس .

(٤) عن مكانة زرياب يورد الحميدى : «وزرياب عندهم كان يجرى مجرى الموصلى فى الغناء ، وله طرائق أخذت عنه ، وأصوات استفيدت منه والفت الكتب بها ، وعلا عند الملوك منالك بصناعته واحسانه فيها علوا مفرطا ، وشهر شهرة ضرب بها المثل . جذوة المقتبس ، الدار المصرية للتأليف والنشر ص ١٠٢) ولاحظ مكانة «شرحبيل الزامر» من الامير محمد من فحوى قصة يوردها المقتبس ص ١٥٠ .